روضة الحكايات!!
(١٣)

مَالئُ الدّنيا عِلماً وشاغلُ النّاس!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وجاء الدّور علىٰ الأستاذ!

بعد صلاة المغرب في مسجد الحيّ ، سار بعضُ الشباب مع أستاذِ مادةِ التاريخ ، وراحوا يتحدثون حولَ قيمةِ تلك المحاضراتِ التي تُلقىٰ في معهد تحفيظِ القرآن ، وعن مدىٰ تَجاوُبِ الناسِ معها...

ومما قيل أثناء السّيرِ باتجاه بيتِ الصّديق (أسعد) : لماذا لا تُحدَّدُ واحدة من المحاضرات ، فيقوم بإلقائها أحدُ الأساتذة ، بحيث يكون الترتيبُ علىٰ الشكل التالي : أربع محاضراتٍ يُلقيها الطلابُ ، ثم يلقي المحاضرةَ الخامسة أحدُ الأساتذة المعروفين ، وذلك بسبب حبّ الناس

للتغيير ، وإضافة إلىٰ ضرورة تنويع الأساليب ونحو ذلك .

وبعد أن وصلوا إلىٰ بيت صديقِهم ، وتحلّقوا حوله يسألونه عن صحَّتِه وعافيته... قال الأستاذ : يا أخ أسعد ، إن شاء الله ستقومُ وأنت صحيحٌ معافىٰ ، وستحضر معنا محاضرةَ هذا الخميس .

فاعتدل (أسعد) وقال : ومن سيكون المحاضر ؟

... فابتسم الأستاذ ، ثم قال : إن شاء الله ، سأكون أنا المحاضرَ يومئذ...

وفرح الشباب لموافقة الأستاذِ ، ثم سأله أحدُهم : وعن أيّ موضوعٍ ستكون المحاضرةُ ، فعلينا أن نقوم بكتابةِ عنوانِ المحاضرةِ ، واسمِ المحاضرِ ، والتوقيتِ الزمني ، ولا بدّ أن يكون ذلك قبلَ عدةِ أيام..

فقال الأستاذ : لقد انتظرتُ كثيراً ، ولكنّ أحداً لم يتحدث عن واحد من فطاحل علماءِ العربِ والمسلمين ، إنه الإمام الحافظ (جلال الدين السيوطي) ، لذلك قررتُ أن أتحدثَ عنه ، فألخّص شيئاً عن ترجمة حياته ، وخاصة فيما يتعلقُ بجهوده في الإفتاء والتدريس ، والتصنيفِ والبحثِ والدراسةِ ، وإذا أراد اللهُ كان المُراد ، ولا بأس أن تحدّدوا موعدَ المحاضرة مساء يوم الخميس ، وذلك بعد صلاة المغرب إن شاء الله تعالىٰ...

وشكر والد (أسعد) الأستاذ وطلابَه علىٰ ما بذلوه من جهدٍ وما تحمّلوه من تعب وعناء ، وذلك من أجل عيادة ابنه (أسعد) .

فهزّ الأستاذ رأسه ثم قال : أو ما تدري أن الله تعالىٰ قد حضّنا علىٰ عيادةِ المريض ، وأن ذلك

العمل يجلب الرحَماتِ والحسنات...

ثم قال : اعلم أيها الأستاذُ الفاضلُ! أنني سأبلّغ كلَّ معارفي بتوقيتِ محاضرتِكَ يوم الخميس ، وخاصةً أني ما زلت أذكر تلك الكلمة الطيبة التي ألقيتها في احتفالات أهل البلد بمناسبة يوم الهجرة النبوية الشريفة .

ثم غادر الأستاذ وطلابه بيت (أسعد) ، فسأل واحد منهم أستاذه : ولكن يا أستاذنا الفاضل ، ولماذا وقع اختيارك علىٰ السيوطي لا علىٰ غيرهِ... ؟

فأجاب الأستاذ : وهل هناك مَنْ لم يسمع بالإمام السيوطي! تابع الأستاذ : فكتبه كثيرة إلىٰ حدّ عجيب ؟!

و... في الصباح المبكرِ انطلقَ الطلابُ إلىٰ المعهد ، فقاموا بعملية تنظيفٍ شاملة ، وثبّتوا

بعض اللوحات البيضاء ، والتي كُتب عليها الترحيبُ بالأستاذ وبالراغبين في الحضور... ، إضافة إلىٰ بعضِ المعلوماتِ العامةِ حول المحاضرة وعنوانها ووقتها...

بينما اعتكف الأستاذُ في قاعةِ المحاضرة بالمكتبة الوطنية ، وراح يبحثُ عن الكتب التي تُترجِمُ للإمام...

أجل! إنه الدّورُ علىٰ الأساتذة ـ قالها (مصعب) ـ أمّا الطلاب فقد كانوا كَبْشَ الفداء في ذلك!!

* * *

بطاقته الشخصية

ولما اقتربَ موعدُ محاضرةِ الأستاذ ، وَفَدَ الطلابُ والنساء والشبابُ والرجال إلىٰ قاعة المعهد... ، وما هي إلا ساعةٌ حتىٰ غصّتْ القاعةُ بالحضور ، ولم يَبْقَ هناك مكانٌ للجلوس .

فنادىٰ المدير علىٰ (هانىء) وقال له : اذهبْ إلىٰ الشيخ (نوري) : وقل له فليتعاون مع بعضِ الطلاب ، وليضعوا في الغرفِ المحيطةِ بالقاعة الكراسي ، وذلك في إجراءٍ احتياطيٍّ لما سيحدث من ازدحام .

فسأل (نوري) : ولماذا يا أستاذَنا ، وقد كانت قاعةُ المحاضرات تَتَّسِعُ للجميع ، فأجاب المدير : طبعاً لأنّ أستاذ مادة التاريخ معروف من قبل

غالبية أهل المدينة ، ولأن لديه تجاربَ طويلةً ، خاصةً في مجالات البحث والإفتاء والتدريس بل في إلقاء المحاضرات ، وكذلك التصنيف...

... وبعد دقائق جلسَ أستاذُ مادةِ التاريخ علىٰ المنصّة ، وإلىٰ جواره عددٌ من المدرسين.. ومعهم المدير ، ووقف الصديق (مأمون) وراح يتحدّث ـ بصفته عريف الحفل ـ عن المحاضر... وعن عنوان المحاضرة...

ثم قدّم أستاذ التاريخ... وقال : والآن نستمعُ إلىٰ محاضرة الأستاذ (حسين) وهو غنيّ عن التعريف ، فليتفضّل مشكوراً غير مأمور...

... ووقف الأستاذ وراء الميكريفون ، فحَمِدَ اللهَ وأثنىٰ عليه ، ثم قال :

أيها الأحبّة ، لا يسعني في بداية هذه المحاضرة إلا أن أشكرَ اللهَ أولاً ، وذلك علىٰ أن أَنعمَ

علينا بأمثال هذه اللقاءاتِ الطيّبةِ المباركةِ ، وأن أشكرَ القائمين علىٰ أمورِ المعهد ، وذلك لما قدّموه من تضحياتٍ من أجلِ تقديمِ النفعِ للجميع .

وثالثاً أتوجه بالشكرِ الجزيل لكلِّ من وقف هنا ـ علىٰ هذه المنصّة ـ وقدّم ما بوسعه ، وخاصة الطلاب الأعزاء ، وأسأل الله تعالىٰ أن يجعلهم عمادَ الوطن والأمة ، إنه رحيم رؤوف .

ثم قال : وتدورُ محاضرتُنا اليوم حول ترجمة مختصرة لحياة الحافظ السيوطي رحمه الله .

ففي عصر ازدهارِ العلوم ، وخاصة العلوم الإسلامية ، وعلوم اللغة العربية ، حيث انتشار المكاتب والمدارس ، وحيث ظهور فكرةِ الموسوعاتِ الكبيرة في العلوم .

وفي سنة (١٤٤٥م) وُلد الإمام السيوطي ، فأطلق عليه والدُه اسم (عبد الرحمن) ، ولقّبه

بجلال الدين ، وكنّاه بأبي الفضل...

ويعود نَسَبُه إلىٰ بلده (أسيوط) في مصر...

ونشأ (السيوطي) في بيئةٍ علميةٍ ، فوالده يُعَدُّ من أكابرِ العلماء ، حيث قرأ علىٰ الحافظِ ابن حجر وغيره ، وتولّىٰ الإفتاءَ ، وجلس للتدريس وكذلك كان جدّه...

ثم تتلمذ السيوطيُّ علىٰ يدِ كبارِ علماءِ مصر آنئذٍ ، ثم شاء الله أن يَرحلَ إلىٰ بلاد الحجاز ، فأخذ العلومَ عن علمائها .

وما تميّز به السيوطي أنه كان له ذاكرةٌ عجيبة ، فقد حَفِظَ القرآنَ الكريم وهو دون ثماني سنين ، ثم حفظ كثيراً من الكتب والمجلدات الفقهية ، مثل كتاب (المنهاج) للنووي . كذلك فقد تميز ببذله أقصىٰ جهدِه في سبيل تحصيل العلوم ، لذلك عدّ من الرجال الذين أخذ عنهم العلم أكثر من

مئة وستين عالماً ، ومن النساء أكثر من أربعين امرأةً!

وامتاز السيوطي بحبه للخير وأهله ، والفقر وأهله ، وبالتأنّي في كل الأمور ، وحبّ الصالحين والعلماء ، والبُعد عن السلاطين والأمراء .

* * *

شيء عجيب!!

تابع الأستاذ قوله :

والعجيب في ترجمة حياة السيوطي ، كثرةُ عددِ مؤلفاته ، بحيث لم يتركْ فنّاً من فنون العلم إلا وصنّف فيه ، ففي علوم القرآن الكريم له مؤلفاتٌ كثيرة ، أهمُّها :

(الإتقان في علوم القرآن) و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)...

وفي علومِ الحديثِ له مصنفاتٌ عديدة ، منها : (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة) ، و(الفوائد المتكاثرة في الأحاديث المتواترة)...

وفي علوم الفقه وأصوله له مصنفاتٌ هامة

جـداً ، منهـا : (الحـاوي للفتـاوي) . (الأشبـاه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية) .

إضافةً إلىٰ ما كتب في علوم اللغة العربية ، وعلوم التاريخ ، وما إلىٰ هنالك .

حتىٰ زادت مصنفاته ، ما بين عدة مجلدات ، وبين عدّة ورقات عن ألف مصنف!! بعضها طُبع وبعضها مازال مخطوطاً في المكتبات العامة...

ولعل كثرة تأليفاته تعود إلىٰ انقطاعِه عن الناس فترة تزيد عن عشرين عاماً ، إضافة إلىٰ صبرِه وهمته العاليةِ في سبيل تحصيلِ العلوم ، إضافةً إلىٰ كثرة خصومه ، وخاصةً من العلماء ، أمثال السخاوي ، والقسطلاني ، وغيرهما .

مما جعله يثبت آراءه في كتب كتبها ورسائلَ بثَّها بين الناس ، فكان من أكثر مَنْ كتب في اللغة العربية...

وعلىٰ الرغم من كلِّ ما قيل في حقه ، فها هي آثاره تدلُّ عليه ، فهل وصل أحدٌ من خصومه إلىٰ ما وصل إليه ؟!

فحتىٰ في مجالات الشّعر ، يُعَدُّ من الذين قالوا... وأجادوا ، سواءً كان ذلك في مجالات الرثاء ، أو في المديخ ، وله بديعية أسماها (نظم البديع في مدح الشفيع ﷺ) في (١٣٣) بيتاً...

* * *

لقد مات مجتهد العصر!!

وهكذا اعتزل الإمامُ السيوطيُّ الدنيا ، وتفرّغ للكتابة والعبادة ، ولكثرةِ ما عانىٰ من حُسّادِه وخصومه ، كتب رسالةً عنوانها (تأجيل الظُّلامة إلىٰ يوم القيامة) .

وكان اعتكافُه في منزله علىٰ النيلِ بجزيرة الروضة جنوب القاهرة...

حتى إذا كانت سنة (٩١١هـ= ١٥٠٥م) مرض الإمامُ مرضاً شديداً ، وبينما هو يقرأ سورة يٰس ، وافتْهُ المنيّة ، فمات .

وحُمل جثمانه إلىٰ مقبرة باب القرافة ، فصلّىٰ عليه خلقٌ كثير ، ثم وُوْرِيَ الثرىٰ ، فرحمه الله ، وأسكنه فسيحَ جناته ، والحمد لله رب العالمين.

* * *